رمزية العنوان وجماليته في ديوان "حروف وحروق" ليوسف بديدة.

The Symbolism and Aesthetics of the Title in the Collection of Poems "Letters and Burns" by Youssef Beddida.

طالبة الدكتوراه/ أحلام كركود

الأستاذ الدكتور/ سعد مردف

قسم اللغة والأدب العربي - جامعة حمه لخضر الوادي - (الجزائر)

مخبر التكامل المعرفي بين علوم اللغة العربية وآدابها والعلوم الاجتماعية، جامعة الوادي.

karkoud-ahlem@univ-eloued.dz

mereddef-saad@univ-eloued.dz

تاريخ الإيداع: 2023/04/01	تاريخ القبول: 2024/09/25	تاريخ النشر: 2025/03/15

ملخص:

تحتل العنونة في الشعر مكانة هامة لما تحمله من وظائف دلالية، وبما تشكله من عتبات تُحيل على النص، لذلك تعد عملية فك رمزيتها، وشفراتها جانبا مهما في عملية التلقي والقراءة، حيث إن توظيف تقنية الرمز يعد من بين أهم مظاهر التجديد التي انبرى لها الأدباء والشعراء المعاصرون. ومن بينهم الشاعر "يوسف بديدة".

تهدف هذه الدراسة إلى فك رمزية العنونة في ديوانه (حروف وحروق) عبر مقاربةٍ سيميائية تتناول دلالات ومعان متعددة، منطلقة من الإشكال الآتي:

ما دلالة العنوان في هذا الديوان؟ وما الوظائف التي أداها من خلال ما حمله من شحنات ترميزية؟ وأين نلمس تموضعَ تلك الدلالات المختلفة في متن نصوصه؟

الكلمات المفتاحية: الترميز؛ عتبة العنوان؛ المفارقة الشعرية؛ السيمياء؛ حروف وحروق.

Abstract:

The title occupies a paramount place in poetry because of the important semantic functions it carries and the thresholds it constitutes while referring to the text. Therefore, the process of decoding its symbolism and codes is an important

aspect in the receiving and reading process. The use of the symbol technique is also one of the most important aspects of renovation known to contemporary writers and poets. Among them is the poet 'Youssef Badida'; the son of 'Wadi Souf' city. This study aims to decipher the symbolism of entitling in the collection of 'Letters and Burns' through adopting a semiotic reading that deals with the symbolism of the entitling semantics in this collection. Hence, the current study addresses the following research problem: What is the semantics of the title in the collection of 'Letters and Burns' by Youssef Beddida? What functions did he perform through carrying the symbolic charges? And where can we recognize the positioning of these different forms of semantics in the body of the collection texts?

***key words**:* Symbolism; Title Threshold; Poetic Irony; Semiotics; Textual Coherence.

مـــقدمـــة:

تفرض القصيدة العربية المعاصرة معمارا خاصا بها، يستوجب على الدارسين البحث عن آليات تستنطق جوهرها، وتقف عند دلالات نظامها وبنية عناصرها، شكلا ومضمونا. وقد تَشَكَّلت هندسة البناء في القصيدة العربية من تقنيات متعددة وظفها الشعراء للارتقاء بمنجزاتهم المختلفة، وأهم هذه التقنيات، توظيف الرمز، الخيال، والصورة، وغيرها من الخصائص التي تميّز القصيدة العربية في مختلف مراحل تطورها وصولا إلى شكلها المعاصر، ولا شك أن اللغة تحتل المركز في النص الشعري كونها أداة أساسية يستخدمها الشاعر للتعبير عن رؤاه الفكرية والفنية والجمالية المتولدة عن تجربته الشعرية، باعتبارها المُعتمد الأول، والمرتكز الأساسي في عملية الإبداع الفني.

فالشاعر المبدع هو الذي يحسن توظيف الخصائص الفنية المتمثلة في الإيقاع، والصورة، والتجربة الشعرية فيثريها برؤاه وأفكاره الخاصة، بغية الوصول إلى قلب القارئ، ما يجعله ينسجم مع نصه الأدبي، ليصبح بعد عملية القراءة ملكا له من خلال تأويله دلاليا. فتصبح بذلك اللغة ملكا للشاعر بينما المعاني والمدلولات ملكا للمتلقين. وهذا ما تفسره العتبات النصية الموجودة في كل نص أدبي، وأهمها عتبة العنوان الذي يعتبر تأشيرة العبور إلى أجزاء النص ومداخله، منفتحا بذلك على العديد من المدلولات وتوجهات الشاعر الفكرية، ويختلف توظيف العنوان من شاعر إلى آخر فالبعض يتجه نحو السهولة، والوضوح في الألفاظ، والبعض الآخر يميل إلى الغموض الموحي البنّاء. وهو ما يتجلى في شعر الشاعر "يوسف بديدة " الذي ضمن ديوانه "حروف وحروق "حمولة دلالية تحتاج تحليلا وقراءة، إذ يجعل لكل قصيدة عنوانا انتقاه بإبداع وإحكام، مما يدعونا للبحث في تجربته الشعرية ورؤاه وتوجهاته الأدبية من خلال هذه الزاوية.

لقد أولت السيمياء عناية خاصة بالعناوين كعتبة رئيسة موازية للمتن تحمل العديد من الدلالات، والرموز التي تحتاج إلى دقة نظر، وإعمال الفكر في تحليلها وفك شفراتها أثناء تحليل النصوص،

والغوص في أعماقها والبحث عن مدلولاتها السيميائية كعلامات تستوقف القراء وتثير انتباههم، وهو ما يسعى إليه هذا البحث في فك شفرات رمزية العنونة في ديوان "حروف وحروق". وقبل الولوج إلى فك شفرات العنوان ورمزيته كان لابد من التعريج على مفهوم الرمز والإشارة إليه.

أولا: مفهوم الرمز:

نظرا لطبيعة الشعر الخاصة التي تتسم بالمرونة والليونة تارة، والتعقيد والغموض تارة أخرى أصبح الشاعر المعاصر يفكر في خلق وسيلة جديدة تنقل تجربته الشعرية إلى المتلقي في قالب فني جمالي، فينتج عن هذا خلق وتوليد الشاعر لأسلوب خيالي يتخطى حدود اللغة الشعرية المباشرة والتصريحية، حيث يسمى هذا الأسلوب باللغة الرمزية.

وظاهرة الترميز سواء في الشعر، أو في غيره تعد أداة فنية هامة في الخطاب، يستخدمها الشاعر بدلالات مختلفة، وقد جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة (ر، م، ز): الرمز بمعنى": تصويت خفي باللسان كالهمس، ويكون بتحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة بصوت إنما هو إشارة بالشفتين، وقيل الرمز إشارة وإيماء بالعينين، والحاجبين والشفتين والفم، والرمز في اللغة كل ما أشرت إليه بيد أو بعين "[1].

يتفق أغلب الدارسين على أن الرمز هو الإشارة بمختلف الطرق، حيث انتقل هذا المفهوم إلى مجال الأدب فأصبح له "خصوصية من حيث الدور.والمفهوم الذي يقوم به في عرض إيحاءات الأديب من خلال النص النثري عامة، والنص الشعري خاصة "[2]، والشاعر يلجأ إلى توظيف الرمز انطلاقا من دافع نفسي ذاتي، جاء نتيجة تراكمات عاشها كتجربة شخصية فيقوم بتوظيف الرمز باعتباره أداة هامة لإيصال مالم يستطع الإفصاح عنه بطريقة مباشرة، لأسباب قد تكون سياسية أو اجتماعية ...إلخ. يقول محمد غنيمي هلال في كتابه الأدب المقارن حول مفهوم الرمز "معناه الإيحاء؛ أي التعبير غير المباشر عن النواحي النفسية المستترة التي لا تقوى على أدائها اللغة في دلالاتها الوضعية، والرمز هو الصلة بين الذات، والأشياء بحيث تتولد المشاعر عن طريق الإثارة النفسية لا عن طريق التسمية والتصريح"[3].

من هنا بات توظيف الرمز جزءا هاما من الإبداع الفني يكتسب به الشعر دورا هاما في الحقول الأدبية مترجما معاناة المبدع، فينقلها إلى المتلقي "إذ نجد أن الرمز هو علامة تعتبر ممثلة لشيء آخر دالة عليه ففي معناه، هو ما أخفى من الكلام إذ يستعمله المتكلم، إذا أراد إخفاء أمر ما عن كافة الناس فيضع للكلمة التي يريد إخفاءها اسما من أسماء الحيوان، أو الطيور أو سائر الأشياء" [4].

وبهذا يتوجب على الشاعر وضع الرمز في سياق محدد لتحقيق الغاية المنشودة حتى تُفهم لدى المتلقي، ويكون الشعر بذلك ذا قيمة فنية إبداعية هادفة. وهو ما نجده أكثر عند الشعراء المعاصرين في دواوينهم الشعرية بغية التعبير عن أحاسيسهم ومشاكلهم، لأسباب كثيرة قد تتعلق بالواقع السياسي، أو

الثقافي أو الاجتماعي، فالرمز إذن يعد تقنية فنية تتجسد من خلالها القيم والدلالات باختزاله لمجموع الأفكار والمعتقدات، مما جعل الرموز تختلف باختلاف الرؤى الفكرية انطلاقا من أن الترميز ناتج عن ثقافة جمعية، تؤطرها سياقات تاريخية، أو أسطورية أو شعبية أو دينية.

والشعر الحداثي هو شعر رؤيا يتسم بالغموض، ويبحث في المجهول، بينما يبتعد ويفر من الأسلوب المباشر والواضح "وعلى هذا النحو تبدو اللغة نسقا عضويا من الرموز، ينكشف لنا بواسطة فكرنا في طابعه الصوري وطابعه التجريبي، وهذا يعني أن أفكارنا وتصوراتنا تبقى غامضة مبهمة ما لم تمسكها اللغة وتدخلها في جهاز حي من الرموز الدالة "[5]، باعتبار أن الشعر هو ذاك الوعاء الحاوي لتمثلات الفكر الأدبي الفنية والجمالية .

فاستخدام الرمز وتوظيفه في القصائد يعد من أهم الظواهر الحداثية التي جاءت بها بوادر التطور، والتغيير التي طرأت على القصيدة العربية القديمة، فجاءت الحداثة الشعرية كردة فعل على ما كان مألوفا في الشعرية العربية القديمة، والتي جعلها أهلها ميثاق قدسي، فكان لابد من إيراد تجديد على تلك القواعد والقوانين لامس مختلف جوانب القصيدة وفق ما تستدعيه الذائقة الفنية؛ وذلك ما يتمثل في تبيان قدرة الشعراء في توظيفهم للرمز وجعله أداة جمالية تتسم بها أقلامهم الإبداعية، ومدى تطويعهم لذلك الرمز وتوسيع دائرة مدلولاتهم للوصول إلى مبتغاهم.

ويعتبر الشاعر "يوسف بديدة" صوتا شعريا ظاهرا وعلامة بارزة في الشعر الجزائري الحديث حيث عدّ من الشعراء الثقال الذين أتقنوا توظيف تقنية الرمز من خلال ديوانه "حروف وحروق" الذي جمع في ثنايا قصائده دلالات مختلفة وأبعاد رمزية متعددة.

ثانيا: عتبة العنوان ودلالاتها في ديوان حروف وحروق:

تحظى عتبة العنوان بأهمية بالغة في الدرسين النقدي والأدبي، لما لها من مكانة في العتبات النصية الداخلية والخارجية، ولما تحمله من قوة دالة على النص، فالعنونة مفاتيح للأعمال والنصوص الأدبية، كونها حاملا للقراءات الدلالية المفضية إلى مكنونات المدونات والموضوعات، بل وتفرض سلطتها في تعيين نوعيتها، وماهيتها ورسم محاورها وتشكلاتها.

ولا شك أن الإقرار بأهمية العنوان في النص الشعري أمر لا مناص منه، فهو يحمل هويته ويعد عتبة لاكتشاف عالمه الحقيقي، وإماطة السر عن إيماءات ورموز المتون التي من شأنها الحفر عميقا في ذهن المتلقي بما ترمي إليه من دلالات وإيحاءات وأبعاد.

فالعنوان أهم مكون رئيسي للولوج إلى عالم القصيدة، وكثافة دلالية بمعنى موجز يفترض تحليل شفراته، أو تلخيص الفكرة العامة التي يبثها الخطاب، إما بالتوجه إلى الوظائف التي يؤديها، أو بتقنياتها

الفنية الجمالية، ولذلك يرى "جميل حمداوي" أن العنوان يعد "من أهم العتبات النصية الموازية المحيطة بالنص الرئيس، حيث ساهم في توضيح دلالات النص واستكشاف معانيه الظاهرة والخفية ،فهمًا وتفسيرا وتركيبا" [6]، فيشكل نقطة وصل قرائية بينه وبين المتن .

بناء على ما سبق يمكن القول أن "العنونة بالنسبة للسيميولوجي بمثابة بؤرة ونواة للقصيدة الشعرية تمدها بالحياة والروح والمعنى النابض، وأن العنوان يمدنا بزاد ثمين لتفكيك النص ودراسته ...إنه يقدم لنا معرفة كبرى لضبط انسجام النص، وفهم ما غمض منه..."[7]، باعتبار أن النص الشعري المعاصر هو نص مراوغ وزئبقي يصعب تحديد دلالاته، والإمساك بها بسهولة؛ إذ أنه يفرض على القارئ تحديد استراتيجية ذكية لفهم شفراته وفك ألغازه.

وقد جمع الشاعر في ديوانه حروف وحروق العديد من عناوين القصائد التي تنضوي تحتها دلالات متعددة، تجعل القارئ أمام مجموعة من الرموز المشفرة التي تحتاج في حلها وفكها إلى فكر أدبي فني إبداعي لأن العنوان" حامل معنى وحمال وجوه، مواز دلالي للنص وعتبة قرائية له، توجه المتلقي نحو فحوى الرسالة ومضمونها، وهو حامل معنى من حيث كونه يوجه إلى مقصد بذاته، أو يلمح للمحتوى "[8].

1- العنوان الرئيس:

إن أول مستويات التحليل السيميائي يتم من خلال الوقوف عند أول عتبة نصية وهي العنوان باعتباره العتبة المركزية التي وجب على الدارس الوقوف عندها وتحليلها، كونها المدخل الأول لعالم المتن، فيكون متقن الصياغة يلج من خلاله القارئ إلى عالم القصيدة ليستشرف تصورا ما عن المتن، فهو "مفتاح تقني يجس به السيميولوجي نبض النص ويقيس به تجاعيده، ويستكشف ترسباته البنيوية وتضاريسه التركيبية على المستويين الدلالي والرمزي "[9].

ويضعنا العنوان "حروف وحروق" منذ البدء أمام شفرة التشكيل، إذ يجذبنا بدلالاته الموحية نحو عالمه الرحب، إننا أمام عنوان تام المبنى، والمعنى يشكل رغم قصره نصا بذاته، حيث أن أول ما يشد أو يجذب انتباه القارئ هو ذلك التناغم الموسيقي الذي تشكله الكلمتين (حروف وحروق) متمثلا في الجناس الناقص الذي خلف أثرا بليغا على أذن السامع من خلال تحسين الكلمة من ناحية اللفظ، بالإضافة إلى ذلك المزج، والجمع بين المتناقضات.

وقد استهل الشاعر نصه بكلمة حروف فجاءت في موقع الصدارة لتدل على أهميتها؛ إذ أن الحرف يمثل البداية، الحياة، الولادة الجديدة، والحرف هو أول ما يتم دراسته في المدارس وهو أول ما يتعلمه الإنسان خلال مساره التعليمي فبالحرف يستطيع التعبير عما يفكر فيه وما يختلجه من مشاعر، وبالحرف يستطيع إيصال رسالته إلى العلن لأنه المكون الرئيس المترجم للأفكار. ولذلك افتتح به الشاعر عنوان ديوانه كله، بل وجعله في صيغة الجمع ليوضح مدى أهمية الحرف في حياة الإنسان، وذلك يدل

على مجموعة الأفكار، والأحاديث الداخلية الكثيرة للشاعر التي لن تعبر عنها إلا مجموعة الحروف المتآلفة. وقد جاء العنوان في شكل جملة اسمية واقعة خبرا لمبتدأ محذوف وجوبا تقديره هذه، وتدل الجملة الاسمية على الثبات والسكون والديمومة؛ أي أن ثمة إشارة لأشياء ثابتة تشكل بؤرة القصائد، كما جاءت نكرة لتدل في هذا المقام على العموم، والشمول ذلك يعني أن الشاعر تراكمت واختلطت بداخله المشاعر والأحاسيس، والأفكار فبلغت كل جوانب حياته، ولم تقتصر على جانب واحد، كما دلت النكرة أيضا على التعظيم وقد وظفها الشاعر ليبين مدى عظيم الموقف الذي هو به، فجاءت مترجمة لأفكاره، وعواطفه بل و رسالته التي أراد إيصالها عبر إبداعه الشعري.

أما كلمة حروق فقد انضوى تحتها العديد من المدلولات، لأنها كلمة تجمع الكثير من المعاني التي تدل على الألم الداخلي والانكسار والحزن ...الخ، فالحروق لن تسببها إلا النيران إلا أن هذه النيران معنوية، شكلت حرقة للذات الشاعرة بسبب الكثير من المشاكل النفسية التي مر بها عبر تجربته. كما جاءت نكرة لتؤدي إلى تمييع الدلالة لأن الشاعر لم يبين طبيعة هذه الحرقة بالضبط، وهذا طبيعي لأنه راجع إلى طبيعة النص الشعري المراوغ، حيث أنه لو قال الحروق لكانت هذه الكلمة مقتصرة فقط على الحرق الناجم عن الاشتعال الجلدي. وقد توسط حرف العطف العنوان ليربط بين كلمتي حروف وحروق، وهذا يدل على الحبل المتين الذي يجمعهما. فإما أن تكون الكتابة هي من تذكّر الشاعر بآلامه فتوقظ أوجاعه وآهاته، وإما أن تكون الكتابة هي المتنفس الوحيد الذي يريحه من مرارة ألمه، فيكون دور الحرف هنا المترجم الناطق لأحاسيسه ولأفكاره. وقد أدى حرف المد المتمثل في الواو دورا فعالا في التنفيس عن أوجاع الشاعر، فكان فرصة منحها الشاعر لنفسه ليعبر عن ألمه، وعن حرقته الكامنة في صدره، وصراعه الداخلي، عبر زفراته خاصة باقترانه بحرف الراء التكراري الحراري، الذي لا يكاد يوجد في لفظ إلا وحمل دلالة الحرارة (الحرّ، الحرق، الحب، الحمم، الحميم، الحسد، الحزن، ...). ففي جوف هذه الألفاظ تسكن حرارة الحب وحرارة الحرق وحرارة الحزن، وما حروف الشاعر إلا أنفاس حارة تصدر عن قلبه ونفسه وعقله، ومنه نستنتج أن احتراق حروفه ماهو إلا احتراق يضيء طريق وصوله إلى مبتغاه.

2- جماليته:

تكمن جمالية عنوان "حروف وحروق" لـ "يوسف بديدة" في المعاني العميقة التي يحملها، باعتباره سببا رئيسيا في جذب القارئ إذ يفجر العديد من الرموز والدّلالات التي تمنح القدرة على استحضار المتن، وذلك من خلال الحروف الانفجارية القوية لتكوّن بذلك حركة تحليلية ترتبط بين العنوان والنص.

ومن الجانب الجمالي أيضا، يتضح أن الشاعر "يوسف بديدة" وظف المفارقة الشعرية كميزة فنية يتسم بها عمله الإبداعي، فنلاحظ طغيانها على جميع أنحاء النص، وهذا من طبيعة النص الشعري المعاصر الذي يتسم بالغرابة، والغموض، وتوظيف الرموز في الكثير من الأحيان، وتتجلى المفارقة في هذا الديوان من خلال عناوين القصائد المتنوعة، والمختلفة.

وقد أفاد ذلك في جعل الكاتب يسعى إلى أن يشاركه القارئ إحساسه المتمثل في الأحزان، ومنه يمكن القول إن المفارقة الشعرية "مرتبطة بكل عنصر من العناصر المكونة للنص، ومتغلغلة في أعماق بنيته، فتمنحه اختلافه المنشود، وتدفعه بخطى واثقة صوب كسر السائد من الأقاويل والظفر باحتمالات أخرى لتشكيل القول الشعري بأن تمنحه المغايرة، والحداثة "[10].

هذا يعني أن المفارقة الشعرية هي مركزية العمل الإبداعي، وبدونه لا يصبح العمل الأدبي متقن الصياغة ومحكم الأسلوب، وكلما زادت حدة التنافر، والتضاد في العمل الإبداعي زادت المفارقة الشعرية فيه.

- وظائف العنوان:

أدى العنوان "حروف وحروق "العديد من الوظائف الأدبية والفنية على مستوى التلقي والتوظيف، طمح الشاعر أن يشاركه مع القارئ ليثير أفكاره قصد تبيان العديد من الحقائق والدلالات، وتمثل ذلك في:

- **الوظيفة الوصفية:** والتي سماها جيرار جنيت "بالوظيفة الإيحائية، وهدفها اضطلاع العنوان بوصف نصه بإحدى خصائصه الموضوعية، أو الشكلية وتكون مختلطة، أو مبهمة بحسب اختيار المرسل للعلاقات الحاملة لوظيفة جزئية مستقاة من النص المعنون، وهي وظيفة مركزية لا مفر منها "[11].

شكل عنوان الديوان أداة وصفية ناقلة مؤسسة للعملية التوصيلية، والتي تمثل دورها في مجموعة الأحرف المنتقاة، باعتبار أن اللغة هي الممثل الأول، والوظيفي في العملية الشعرية، مما أدى إلى الربط النفسي والجمالي بين الكلمات.

- **الوظيفة الإغرائية:** وهي "وظيفة جذب قرائي يحملها المرسل إلى عنوانه خاضعا لتواصله مع العنوان وتوجيهه إلى قارئ ما " [12]. "وقد أوضح جيرار جنيت أن "العملية الإغرائية التي يتبعها المؤلف في وضع العنوان يجب أن تكون خادمة للنص من خلال استفزاز القارئ، وليست عملا إشهاريا للكاتب "[13]. وبالتالي فقد مثل العنوان أسلوب إغراء استقطب من خلاله الشاعر فكر القارئ، لتتم عملية القراءة، والتأقلم مع مواضيع القصائد.

نستشف من خلال ما سبق أن العنوان يرمز إلى الحرقة، الاشتعال، الألم، الكبت الذي عاناه الشاعر اتجاه واقعه الأدبي، ليخلق عالما فنيا يتجاوز به نمطية الواقع القديم بين العنوان و مقصدية الشاعر، والغرض الوظيفي، والجمالي لنصوصه الإبداعية المتمثلة في القصائد، ومنه يمكن القول أن العنوان "ارتبط بعلاقة فاعلية مع النص تتكئ على منطق الضبط، وتلك العلاقة إنما تكتشفها من الترابط

الدلالي بين المرسل والمرسل إليه، هذه العلاقة تسعى إلى أن تكون جزءا من علاقات سيميوطيقية تقوم بوظيفة الاحتواء لمدلول النص"[14].

أعطت كل لفظة وظفها الشاعر في عنوان ديوانه دلالة معينة، ورمز معين يعبر عن شيء مقصود بطريقة فنية محكمة السبك، وبشكل غير مباشر مما يثير بذلك ذهن القارئ فيجعله يندمج مع النص فهما ومتعة، ومنه يستنتج الدارس أن العنوان "لازمة مهمة في النص الشعري ،يعبر عن دلائله، وإيحاءاته التي من شأنها أن تدل المتلقي على متن النص، من باب أن النص تعبير نفسي عن مشاعر الشاعر، وأحاسيسه ورؤاه الفنية المعبرة عن ذاته في النص "[15].

نستنتج من خلال ما سبق أن العنوان "حروف وحروق " أدى العديد من الدلالات والرموز المتمثلة في: السعي إلى التجاوز من أجل تحقيق حياة جديدة ملؤها الأمن، الراحة، الاستقرار. . . الخ.

-العناوين الفرعية: تعد عناوين القصائد الفرعية المتنوعة بمثابة نقطة وصل بينها وبين العنوان الرئيس، مما شكل فضاءا خصبا تتولد منه الدلالات، والرموز العاكسة للمتن.

وتتمثل عناوين قصائد ديوان "حروف وحروق" في واحد وثلاثين عنوانًا من بينها: "نرجسي، المتسامرون، البركان، خطاب مباشر إلى الغيب، هل تسمعين، آهة على مركب الأمل، اعتراف، على بساط الظل الأبيض، العائد، سقوط حر، الطريد، هذا أنا، الأبجدية، نصف وهزيمة، رسالة من تحت الأنقاض، بلا عنوان، السجين، الجمل، أبطال الزمن الأخير، أغنية على شواطئ عذراء، هل تعرفين؟، الكتب الخائنة، إلى صديقي، أحلام . . . بريئة، أقول لها ، من أنت؟"[16].

لكل عنوان من العناوين مقصدية معينة ترتبط بالنص الأدبي، " فمعناه من وظيفته لأن عنوان الشيء دليله، ووضعه أن يكون في بداية المصنف لأنه خير من يساعدنا في كشف غرض المؤلف"[17].

وعليه نستنتج أنَّ العنوان الفرعي يسهم بنسبة كبيرة في فهم فحوى النص، بل إنه يعمل على تفكيك الرموز والتوغل في أعماق العمل الإبداعي، فتكون بذلك العناوين بوابة رئيسَة تمكن من العبور إلى النصوص وفهمها فهما عميقا يشمل الجانب الفني والوظيفي. وهو ما قام به الشاعر "يوسف بديدة" في قصائد ديوانه "حروف وحروق"، حيث جمع بين عنصرا الفن والوظيفة، وقد تجسد الجانب الفني في عنصر رئيسي تمثل في اللغة التي تعد الوعاء الحاوي للفكر، فهي الوسيلة التي يحتكم إليها الإنسان في التعبير عن كل ما يجول في خاطره، كونها القواعد والضوابط التي تقوِّم اللسان العربي لأنها "آلة الأديب وأداته في التعبير لا يغفل عنه ،... فاللفظة في يديه كمادة التمثال في يد المثال، أو الألوان في ريشة فنان " [18]، وهذه الميزات تتطلب من الشاعر، أو الأديب بذل جهد أكبر حتى يستقيم الوزن، وتتحقق الغاية المنشودة، وهي الوصول إلى قلب وفكر المتلقي.

أما الجانب الوظيفي فقد تمثل في الأفكار، وتعرف الأفكار على أنها كل ما يتردد على الخاطر من آراء، وما يخطر في العقل البشري من حلول، أو اقتراحات، أو تحليلات للوقائع، أو الأحداث. ولذلك جعل "يوسف بديدة" كلا من الجانب الفني، والوظيفي قاعدة أساسية يحتكم إليها عمله الإبداعي، وهو ما تجسد في عناوين قصائد ديوان "حروف وحروق"، ومن بين العناوين نذكر عنوان قصيدة "خطاب مباشر إلى الغيب ": تضمن هذا العنوان حمولة دلالية ورمزية تستدعي الانتباه وتستوقف القارئ لاستنطاقها، حيث يحمل رمزية عميقة بدءا من تركيبته المتضادة "خطاب مباشر إلى الغيب"، فالخطاب المباشر يكون لمخاطب يتلقاه، ويسمعه ويعيه لكن الشاعر أرسله إلى غائب عنه وهو الغيب، مما يحمل دلالة التيه، واليأس، والحزن، والألم، فمن يوجه خطابا إلى الغيب إما أنه في حالة يأس من الواقع، ومن انعدام وجود شخص يسمعه، أو أنه لا ينتظر جوابا أصلا ليكون قوله مجرد صوت مرتفع للبوح.

نجد هذا العنوان يحمل دلالة غامضة مشحونة بالعديد من الرموز التي سكنت جميع مفاصل النص، فالشاعر الذي فقد بوصلته وجعل نفسه يخاطب من لا يعرف، فكيف ينتظر منه خلاصا.

جاء العنوان في شكل جملة اسمية واقعة خبرا لمبتدأ محذوف وجوبا تقديره هذه، وقد تصدرت العنوان لفظة خطاب لتدل على أهميتها فجاء في صيغة النكرة ليدل في الغالب الأعم على العموم، والشمول لأن الشاعر لم يقصد خطابا معينا، بل وسع دائرة المجالات، فلم يوضح أي نوع من الخطاب يقصد بالضبط، بل جعل خطابه شاملا لجميع نواحي الحياة، وتدل كلمة خطاب على دلالات عدة تتمثل في البوح، والتعبير، والكلام المرسل، أما توسط حرف الجر للعنوان فقد دل على شيء واحد تمثل في اليأس، والإحباط لأن لفظة الغيب جاءت اسما مجرورا والاسم المجرور بالكسرة هنا يرمز إلى الفشل، والإحباط والشعور بالهزيمة وهذا ما نستشفه من كلمة الغيب. لأن الشاعر يرى بأن أمنياته بعيدة المنال، ولذلك خاطب الغيب ليفر من وحشته وغربته فترتاح نفسه المعذبة.

من خلال ما سبق نرى أن اختيار الشاعر للعناوين الرئيسة أو الفرعية لم يكن اعتباطا، إنما استند في ذلك إلى قاعدة مفاهيمية فنية متقنة الصياغة، ولذلك كان اهتمام السيمياء بعتبة العنوان اهتماما بالغا، واعتبرته مصطلحا إجرائيا مؤسسا في مقاربة النصوص الإبداعية والأدبية، بل وجعلت منه "رسالة لغوية تتصل لحظة الميلاد بحبل سري يربطها بالنص لحظة الكتابة، والقراءة معا فتكون للنص بمثابة الرأس من الجسد نظرا لما يتمتع به العنوان من خصائص تعبيرية، وجمالية تتحكم في دلالية النص، في التأويل الأدبي مثل بساطة العبارة وكثافة الدلالة "[19]، يقول الشاعر في مقدمة قصيدته:

"أيها الغيب الذي فيه شروقي
كيف لي أن أتعافى من حروقي"[20].

وجه الشاعر نداءه للغيب الذي يرى فيه المصدر الوحيد للأمل، وإعادة الحياة من جديد، فخاطبه مباشرة في قالب إنشائي مستخدما أسلوب نداء "أيها"، مما انبثقت عن ذلك الكثير من الدلالات، وقد

أفادت بلاغة النداء التي هي جملة إنشائية طلبية في تنبيه "الغيب" إلى أهمية الموقف الذي يمر به الشاعر، بما أنه هو المقصود في الخطاب، وعادة ما يوجه أسلوب النداء" أيها" من شخص له رسالة يحملها على عاتقه أراد إيصالها لطرف يستجيب ويكون هذا الطرف قريبا من المخاطب على مختلف المجالات، ويدل هذا الخطاب على وصول الشاعر إلى مرحلة عالية من اليأس، لدرجة أنه تخلى، وتجاوز العالم الواقعي الذي لم يجد فيه ضالته بل كان عبارة عن ظلمات حالكة جثمت على فكره وقلبه، فلم يجد غير العالم المحسوس المعنوي مأوى له ليشرق، و تبزغ شمس أمله فيتحرر من القيود التي كبلته من جميع النواحي.

فالشاعر هرب من الواقع الخالي من المثالية التي ترضي ذاته فجنح نحو عالم خيالي ليسترجع قواه، ويتعافى من انكساره، وهزيمته التي طالت مدتها، ويتضح ذلك في توظيفه أسلوب استفهام غير طلبي، فهو لا ينتظر إجابة إنما طرح السؤال كان بغرض التخفيف من آلامه وأوجاعه وتأوهاته، وهذا ما نلحظه في ثنايا القصيدة من خلال طغيان حقل الألم والحزن ومن الألفاظ الدالة على ذلك: حروقي، الحزن، الغيظ، الدماء، القهر، الشجون، الجحيم، عذابات السنين، الخوف . . . الخ.

الذات الشاعرة هنا تعاني حالة صراع خارجي مع الحياة، لأن الدنيا أضحت بالنسبة لها جحيما وعذابا يقلق راحتها.

"أيها الغيب حديثي ذو شجون
أنا لا شيء فقل لي من تكون؟"[21].

يتناقض هذا القول مع قوله في مطلع النص، إنه التيه واليأس الذي سكن نفس الشاعر وسكن عنوان نصه، وتموضع في جميع مفاصله ليكون هو الدلالة الباسطة لسلطتها عليه.

فيقول:

"هذه إلياذة القهر تغني
من هنا أعلنت شكي ومروقي"[22].

وبالرغم من أن الشاعر في حالة انكسار، وإحباط إلا أنه بحث عن حلول للخروج من هذه الدوامة، فلملم شتات روحه، وسند نفسه وراح يسعى للمقاومة من أجل تغيير واقعه رغم آلامه وأوجاعه:

"أيها الغيب الذي يعرف صبري
ليس تحت الرمل حبر مثل حبري
إنني أجهد كي أخرج من
ظلمات القبر ما يفتح قبري
إنني أشتط كي لا أتشظى
إنني أبحث عن عمر لعمري

أستطيع الآن أن أعلن فجري"[23].

- الرمزية في قصيدة خطاب مباشر إلى الغيب:

احتوت قصيدة خطاب مباشر إلى الغيب على العديد من الرموز المتنوعة منها رموز دينية، تاريخية وأساطير حيث يقول:

هذا الدنيا جحيم سعّرت

كيف أعتاد عذابات السّنين؟

نجد إشارة هنا إلى القرآن الكريم من خلال تضمين بعض من آياته وتجسّد ذلك في البيت الأول من خلال عبارة "جحيم سعّرت"، وقد ورد ذلك في سورة التكوير في قوله تعالى: {وإذا الجحيم سعّرت} الآية-13-

وفي البيت نفسه استخدم الشاعر رمزا آخر تمثل في الرمز الأسطوري، وذلك من خلال السطر الثاني من البيت إذ يقول:

كيف أعتاد عذابات السنين؟

هنا إشارة إلى أسطورة سيزيف الذي يعد رمزا للشقاء والتعب والاستمرارية والصراع، وقد وظفها الشاعر في هذا السياق للدلالة على أنه يواجه زمنا رماديا يختلط فيه البياض بالسواد، وكأنه زمن مبهم يحول دون رؤية الأشياء على حقيقتها. وهذا يرمز إلى ما يحاصر الشاعر من إحباط، وتعج القصيدة بأفعال الحركة وصورها لتعكس جو الاضطراب والجيشان داخل الذات وخارجها. وتوظيف الأسطورة عادة يكون قصد إيجاد متسع لإفراغ الطاقات النفسية.

ويتضح من خلال ما سبق، أن العلاقة بين العنوان الرئيسي لديوان "حروف وحروق" قد شكلت حلقة وصل بينه وبين عناوين القصائد الفرعية، تمثلت في إحساس الاضطراب لدى الشاعر وما يصاحبه من سلوك انفعالي داخلي وخارجي يدل على القلق، وتعبر الأفعال المتنوعة الدالة على الحركة على الظروف الخارجية التي تقف موقفا ضديا من الذات وتدخل معه في مواجهة حادة.

خـــاتـمـــة:

أفضت رحلتنا البحثية في عوالم العنونة لدى الشاعر "يوسف بديدة" في مدونته المختارة إلى جملة من الأحكام أهمها:

- شكل عنوان ديوان "حروف وحروق "نقطة وصل قرائية بينه وبين المتن؛ إذ جعل الشاعر لغته خادمة لتجربته الشعورية، فأبدع في نسج حروفه على المستوى الفني، والجمالي مما مكنه من الوصول إلى ذهن القارئ.

-شكلت المفارقة الشعرية في ديوان "حروف وحروق" وظيفة إغرائية ساهمت في جذب القارئ، وذلك من خلال فهمه، وتأويله له حسب رؤاه الفكرية.

-تؤدي العناوين في النصوص الأدبية الشعرية العديد من الوظائف من ناحية التلقي والتوظيف أهمها الوظيفة الوصفية، والوظيفة الإغرائية.

-احتوى ديوان "حروف وحروق " على العديد من الرموز والدلالات المتمثلة في حرف الشاعر الذي بات يحترق في سبيل الإضاءة أملا منه في إنارة واقعه المظلم، وتغييره نحو الأفضل.

الهوامش والإحالات:

[1] - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري، لسان العرب، مج 5، بيروت، دار صادر، ط 3، 1994، باب (ر م ز)، ص 356.

[2] - يوسف صبحي عصفور، الرمز في الشعر الفلسطيني المعاصر (فواز عيد ومحمد القيسي وأحمد جور أنموذجا)، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، كانون الثاني 2013، دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، ص08.

[3] - مسعد بن عبد العطوي، الرمز في الشعر السعودي، مكتبة التوبة السعودية، ط1، 1993، ص26، 27.

[4] - أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 2021، ص 24.

[5] - عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط3، 1983، ص 68.

[6] - جميل حمداوي، السميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، وزارة التعليم، الكويت، ع3، مج25، مارس، 1997، ص96.

[7] - عبد الناصر حسن محمد، سميوطيقا العنوان في شعر عبد الوهاب البياتي، دار النهضة العربية، القاهرة، دط، 2002، ص09.

[8] - خالد حسين، اللغة والكتابة واستراتيجية العنوان، الموقف الأدبي، ع288، 2006، ص104.

[9] - جميل حمداوي، السميوطيقا والعنونة، مرجع سابق، ص97.

[10] - محمد الأمين سعيدي، شعرية المفارقة في القصيدة الجزائرية المعاصرة، كسر السائد والبحث عن المغامرة، دراسة، دار ميم للنشر، دط، 2012، ص7.

[11] - سهام السامرائي، العتبات النصية في رواية الأجيال العربية، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006، ص62.

[12] - المرجع نفسه، ص62.

[13] - المرجع نفسه، ص62.

[14] - المرجع نفسه، ص06.

[15] - عماد الضمور، سيميائية العتبات النصية في شعر نادر هدى، دار غبراء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2017، ص15.

[16] - يوسف بديدة، حروف وحروق، ديوان شعري، مطبعة مزوار، الوادي، الجزائر، ط1، 2011، ص55.

[17] - عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، تقديم: ادريس نقوري، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، دط، 2000، ص 29، 30.

[18] - حلمي مرزوق، تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في الربع الأول من القرن العشرين، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دط، دس، ص 372.

[19] - نعمان بوقرة، الخطاب الأدبي ورهانات التأويل (قراءات نصية في تداولية حجاجية)، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2014، ص339.

[20] - يوسف بديدة، مصدر سابق، ص11.

[21] - المصدر نفسه، ص11.

[22] - المصدر نفسه، ص11.

[23] - المصدر نفسه، ص13.

قائمة المصادروالمراجع:

1- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري، لسان العرب، مج 5، بيروت، دار صادر، ط 3، 1994، باب (ر م ز).

2- أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 2021.

3- جميل حمداوي، السميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، وزارة التعليم، الكويت، ع3، مج25، مارس1997.

4- حلمي مرزوق، تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في الربع الأول من القرن العشرين، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دط، دس.

5- خالد حسين، اللغة والكتابة واستراتيجية العنوان، الموقف الأدبي، ع288، 2006.

6- سهام السامرائي، العتبات النصية في رواية الأجيال العربية، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2016.

7- عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط3، 1983.

8- عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، تقديم: ادريس نقوري، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، دط، 2000.

9- عبد الناصر حسن محمد، سميوطيقا العنوان في شعر عبد الوهاب البياتي، دار النهضة العربية، القاهرة، دط، 2002.

10- عماد الضمور، سيميائية العتبات النصية في شعر نادر هدى، دار غبراء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2017.

11- محمد الأمين سعيدي، شعرية المفارقة في القصيدة الجزائرية المعاصرة، كسر السائد والبحث عن المغامرة، دراسة، دار ميم للنشر، دط، 2012.
12- مسعد بن عبد العطوي، الرمز في الشعر السعودي، مكتبة التوبة السعودية، ط1، 1993.
13- نعمان بوقرة، الخطاب الأدبي ورهانات التأويل (قراءات نصية في تداولية حجاجية)، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2014.
14- يوسف بديدة، حروف وحروق، ديوان شعري، مطبعة مزوار، الوادي، الجزائر، ط1، 2011.
15- يوسف صبحي عصفور، الرمز في الشعر الفلسطيني المعاصر (فواز عيد ومحمد القيسي وأحمد جور أنموذجا)، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، كانون الثاني 2013، دكتوراه في اللغة العربية وآدابها.